ـــ سأعود الى البداية .

ـــ مستحيل !

ـــ فكيف يؤمن أخوك بأنهم سيعودون منذ البداية ؟

ـــ سمعوا ذلك من شيوخهم . والشيوخ لا تذكر من البداية سوى عنفوان الشباب، فتستحلي البداية . هل تعرف البداية ، حقا ، يا عمي ؟ ليست البداية ذكريات عذبة ، فحسب ، عن صنوبر فوق الكرمل او عن بيارات فوق ظهوركم ، او عن اغاني بحارة يافا . هل كانوا حقا يغنون ؟.

ـــ هل تتركينني ؟

ـــ الماء لا يترك البحر يا عماه . يتبخر ثم يعود في الشتاء . ويعود انهارا وجداول. ولكنه يعود .

ـــ فهل أبقى وحيدا ؟

ـــ حتى ضرير السلكة لم يعش وحيدا . اذهب واصنع الحصر في قرية السلكة .

ولكنني لم اذهب الى قرية السلكة ، ولم اصنع الحصر لا في السلكة ولا في غيرها .

فقد اقبل العسكر . فبقيت في موضعي بلا حراك سوى اني وضعت يدي فوق عيني فأغمضتهما حتى لا أرى النهاية كما رأيت البداية .

فشعرت وكأن أيدي العسكر تدفعني الى الخارج وتقذفني على الدرجات . فأجدني مرتميا في فناء الدرج . فلا استنجد بصاحبي يعقوب هذه المرة الذي اصبح يحتاج الى من ينجده .

واسمع من فوق ، في منزلي ، صراخا انثويا ، وصوت لطمات وركل وجلبة ، وأرى معركة حامية تدور بين يعاد والعساكر . واراها تقاوم وتصرخ وتركل بقدمها . وأراها تعض كتف احدهم فيصيح من الالم ويولي بعيدا . واراهم يتكاثرون عليها ويدفعونها امامهم الى سيارة الترحيل واسمعها ، والسيارة تتحرك ، تنادي : سعيد ، لا يهمك ، فانني عائدة !

وفتحت عيني وشهقت قائلا : ها قد عدنا منذ البداية !

لكنني رأيت عجبا . رأيت ضابط الشرطة يقرأ في اوراق يعاد بكل احترام . وسمعته يعتذر لها عن الامر الجديد الصادر بالغاء الاذن بدخولها الى اسرائيل ، وعن الزامها بالعودة ـــ معهم ـــ الى نابلس حالا . وقال انه عليها ان تعود ، غدا ، من حيث أتت. أي عبر الجسر .

وسمعتها تقول : لم انتظر منكم غير ذلك .

فأجابها : لم ننتظر منك الاقامة في بيت سعيد .

فصاحت : هذا بلدي ، داري ، وهذا عمي !

قلت في نفسي : سأحفظها مؤونة للعشرين القادمة .

قال : ممنوع .

فقالت انها لم تنتظر منهم سوى ما هم يفعلون . فكيف تنتظرون منا سوى ما نفعل ؟